القسم الرابع

obeikan.com

obeikan.com

الحضارة ليست أمة

الحضارة هي حلم كل أُمة ، وأمنية كل فرد أن يولد في أُمة ذات حضارة. فما هي الحضارة؟

للتعرف على الحضارة وعلاقة الأمم المتحضرة بها ، يلزمنا مراجعة التاريخ ، والمراجعة قد تكون قراءة أو دراسة ، بالشكل الذي يوافق وعي الآلية ، التي تتشكل فيها الملامح الحضارية.

إن عدم فهم الآلية الحضارية ، يعود سببه إلى طبيعة مناهج التعليم ، التي تتناول الأشياء بطريقة - يقينية تسليمية - وصفية جامدة ، كما لو أنها وجدت هكذا منذ البدء. فمفهوم (سُنة الحياة) موغل في عقولنا أكثر من (سُنة التطور). والصحيح إدراك أن (التطور سُنة الحياة) !... للتحرك من العقلية السكونية الرتيبة ، إلى العقلية التطورية المتجددة.

لقد بدأت الحضارة تاريخيًا من الشرق ، قبل أن تزحف تدريجيًا غربًا في الألفية الثانية. وعندما ندرك أن الشرق الأوسط والشمال العربي ، تحديدًا كان مولد وحاضنة البؤرة الحضارية الأولى طيلة آلاف السنين ، فلابد للمناهج التعليمية التربوية ، التركيز على أسباب التراجعية الحضارية ، إلى درجة غيابها التام خلال الألفية الثانية حتى الان.

فالدرس التاريخي ليس المقصود به التوفر على مادة ، للتفاخر ولا البكاء على الأطلال ورثاء الذات. وإنما التوفر على منهج تربوي تعليمي ، ينمي عقلية البحث والاكتشاف لدى الأطفال ، ويوفر لهم الظروف والإمكانات المادية والدراسية ، لاختبار الأفكار وتجربة الفرضيات ، تحت اشراف علمي تربوي ، يساعد على إنتاج جيل جديد من العلماء والمكتشفين والمنظرين ، تتوفر لهم بيئة علمية واجتماعية مناسبة لنشاطهم العلمي.

فمن غير البيئة الاجتماعية والتربوية السليمة ، وأجواء الحرية والأمان والمستلزمات المادية، لا احتمال للحديث عن حضارة.

والدليل على أهمية البيئة الحضارية والأمن والحرية ، ظهور ثلة من العلماء والمنظرين العرب المقيمين في الغرب. بينما تتراجع تلك التطلعات والإمكانات في النظام العربي والبيئة الاجتماعية غير الصحية في بلداننا.

نظرة المؤرخين والمنظرين الأجانب لنا هي نظرة محبطة ، يعمل الإعلام العربي على تجاوزها أو تزويقها والتهوين من آثارها، وفي ذلك مؤامرة على الذات والمستقبل ، وبالتالي تعميق أسباب التخلف والتردي مجاملة ورياء لفئات معينة، تفضل مصالحها الانية على المصالح الاستراتيجية للأمة والإنسان الفرد على السواء.

لقد حاولت سياسات التحديث في القرن العشرين ، إنجاز بعض التغيرات الجوهرية لدفع عجلة الحياة والتفكير للأمام ، وهو ما وفر للأمة نُخبًا ثقافية وعلمية مهمة خلال النصف الأول من القرن الماضي ، سرعان ما تراجعت وأُحبطت لاحقًا ، في جُملة تردي النظام والتفكير العربي في النصف الأخير منه ، وبالشكل الذي انتهى إلى الراهن الرجعي سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. فما حصل خلال نصف القرن الأخير ، يعتبر امتدادًا قاسيًا لقرون التخلف والسيطرة الأجنبية المظلمة بين القرن الثالث عشر والتاسع عشر.

مع الأخذ بنظر الاعتبار ، أن مصالح الاستعمار التقليدي اقتضت سابقًا تحديث المجتمعات المتخلفة ، بينما تقتضي مصالح الاحتلال الأجنبي الراهن ، تعميق مظاهر التخلف والجمود ، لتأمين استمراره وضمان عدم التمرد والمطالبة بالاستقلال والتحرر.

فالخروج من حالة الراهن والتطلع لامتلاك مقاليد الحضارة ، هو رهان الفرد العربي نفسه ودوره الإيجابي لتغيير معايير حركة الواقع ، بما فيها مواجهة

آليات الإقطاع الرجعي – السياسي والديني – وتغيير دفة الحركة نحو الأمام.

وإذا كانت الديمقراطية آلية غربية فرضها المحتل ، للتغطية على أغراضه الحقيقية ، فالفرد المثقف والمتعلم يستطيع تنوير محيطه الاجتماعي من كبار السن وغير المتنورين ، ممارسًا دوره التنويري في التطلع للحياة والحضارة ، واستخدام الديمقراطية لتغيير طبقة الحكم التقليدية الرجعية ثقافيًا وسياسيًا ، عبر المساهمة في إنتاج نخبة وطنية متنورة ، لا تتاجر بالشعارات وتمالئ جماعات النفوذ المحلية والأجنبية ، على حساب الأمة والمستقبل.

كثيرون يشكون من التعب ، ويلتمسون مظاهر الدعة والترف ، للاستجمام من آثار الحروب والاضطراب. لكن الضرورة الحضارية تقول إن الأيام المقبلة هي أيام العمل الجاد والشاق والنضال الحقيقي ، المعتمد على الدور التنويري للفرد والمثقف العضوي ، وليس الاعتماد على الأحزاب والمنظمات ، التي تسرق جهود الجماهير لتحقيق مكاسب حزبية وشخصية ، كما هو واقع الحال.

الحضارة ضرورة للأمة والفرد ، ولكن بطلها الوحيد هو الفرد ، في الزمن الصعب. هذا الفرد هو الذي سوف يصحح المعادلة السياسية التقليدية ، التي اعتبرت الشعب يخضع لوصاية الحاكم ، وعالة على صدقات الحكومة.

والصحيح أن يكون الشعب وصيًّا على الحاكم والحكومة ، وصاحب الجهد والإرادة في إنتاج الحياة والحضارة سوية.

انحطاط الأمة... والخوف من الكلمة

(عمّ الخراب بلادكم ، والتهمت النار مدنكم.
نهب الغرباء حقولكم أمام عيونكم.
هي خربة ، عاث فيها الغرباء فساداً)
– أشعياء بن آموص–

من ملامح انحطاط الأمة أن يسودها السفهاء [من السَفَه وهو ضعف في العقل] ، وأن يُذلّ النبلاء والشرفاء ، وكلمة الحق تغترب ، ويسودها الجهل والنفاق والشقاق. ولم تجتمع هذه الرذائل في زمن ، اجتماعها اليوم على عتبة القرن الحادي والعشرين.

إننا نعيش اليوم انحسار العلمانية والليبرالية والتقدمية ، التي كانت من منجزات المدنية الحديثة ، التي اجتمعت قوى الاستعمار الأنكلو–أميركي والإسلام اليميني الرجعي على محاربتها ، منذ مقتل الزعيم جمال عبد الناصر ، وافتعال الحرب الأهلية اللبنانية ، والمأساة العراقية ، انتهاء بمصادرة الربيع العربي والقضية السورية.

وإذا كان الغرب الاستعماري الإمبريالي ، يخشى ظهور دول مستقلة قوية بعيدة عن محوره ، فإن الرجعية العربية كانت تخشى دائمًا التيار المدني العلماني ، الذي يحرِّر عقول الأمة من الجهل والخرافة والعبودية والذلّ.

ومن سوء حظ العرب ، أن تنكسر قوى التحرر والتقدمية والاستقلال ، ويسودها المحور السلفي ووعاظه. ومن مظاهر الخزي والعار انسياق حملة شهادات الدكتوراه وأشباه المتثقفين وراء ربّ المال الذي اصطلح عليه [بترودولار] ، ذلك الاجتماع المسخ بين بلدان الجوع والعبودية الدينية.

إن حامل الشهادة الأكاديمية هو مؤتمن على خطاب العقل والفكر التقدمي ، وظيفته خدمة التنوير والنهضة الفكرية ، ونشر لواء العلم والعلمانية ، لنقل البشرية من ظلمات الجهل إلى نور العقل [لعلهم يتفكرون] !.

ولكن نفرًا من ضعاف النفوس ، هانت عليهم نفوسهم واستهانوا بعقولهم ، وسخروا أنفسهم وعاظ سلاطين ، وأدنى من ذلك ، خائنين الأمانة ، ومبتذلين الرسالة ، ومستهترين بحاجات الشباب ومصير الأمة. وليس من الصعب معرفة هؤلاء المرتزقة ، فهم كالراقصات والجواري يدورون وراء رأس المال ، وما لهم من مبدأ أو ضمير.

أنني أدعو الشباب العربي المثقف والمتنور ، الوطني والواعي ، فضح هؤلاء المتثاقفين ، تجار الدكتوراه والألقاب الجوفاء ، والترفع عن مجالسهم ، وعدم إتباع سمومهم القاتلة في جسد وعقل العرب. كما أدعو المؤسسات العلمية والأكاديمية ، لانتباذهم وطردهم من صفوفها ، وفي المقدمة منها الجامعات والمؤسسات التي منحتهم ألقابًا علمية ، ليسوا أهلاً لها ولاحتمال أمانتها ، عبر القيام برسالة التنوير والالتزام بخطاب العقل كما يجب.

ولابدّ للمنظمة العربية والعالمية للثقافة والعلوم والفنون والآداب ، من اتخاذ إجراءات لازمة ورادعة بحق المؤسسات والأشخاص ، الذين يفرِّطون في جوهر رسالة العلم والإنسانية ، وتسخيرها من أجل دريهمات كالحة ذليلة.

وإذا كانت معركة العرب ، هي معركة الفكر والحرية ، فالمنظمات والجمعيات الثقافية والأكاديمية اليوم تتحمل المسؤولية الأكبر في الانتصار للعقل والحرية... وإذا لم تتصرف اليوم ، وتقم بدورها ؟. فمتى ؟ !

على المجتمع الدولي ومؤسساته المعنية بحقوق الإنسان والتربية والثقافة والعلوم اتخاذ موقف حقيقي جاد وحازم ، من ممارسات الاضطهاد والإرهاب الفكري الرجعي اليميني المتزايدة في البلاد العربية ، ضد الكُتَّاب والباحثين والأدباء.

ومن المؤسف حالة الصمم والخرس التي يتظاهر بها المجتمع العالمي والعربي إزاء قرارات حظر الكتب ومقاطعة المفكرين واعتقالهم ونفيهم واغتيالهم ، وإجراءات محاكم التفتيش العربية بسبب كلمة أو فكرة أو اسم أو قصيدة ، مصادرين حريات التأليف والتعبير والتفسير والتأويل والتوظيف التراثي والاجتماعي والثقافي. فكم من شاعر معتقل بسبب قصيدة تغضب الحكومة ، أو كتاب أساء الواعظ الديني فهمه ، وكم من مؤلف تعرض للنفي أو التكفير وتطليق زوجته بسبب فكره. أما عدد الذين جرى اغتيالهم وتصفيتهم جسديًا من الأدباء والمفكرين والصحفيين والفنانين فهم بالآلاف.

في بلدان الهجرة واللجوء يقيم آلاف الأدباء والمفكرين والفنانين العرب الأحرار هربًا من واقع الإرهاب الفكري وانعدام الحريات في بلدانهم الأصلية. فلِمَ يتجاهل الغرب كلّ هذه الحقائق والأرقام ؟!! ولِمَ نتجاهل نحن ونستمر في الصمت وخيانة رفاق الكلمة وأصدقاء الفكر والحرية؟!! وإلى متى؟!!...

إن حياة وحريات كثير من الأدباء والمفكرين مهددة بالخطر... وإن كثيرًا من كتاباتهم تتعرض للحصار والمقاطعة من الناشرين ووسائل الإعلام... وسواء في داخل البلاد العربية ، أو المهاجر ، أعداد كبيرة من الأدباء والمفكرين والمثقفين ، يدفنون أحياء.

أما الولايات المتحدة - راعية الانحطاط الثقافي واليمين الرجعي - والتي سخرَّت الفكر الديني لتصف البلدان المستقلة والرافضة لسياساتها بمحور الشر ، فقد كان أحرى بها التنديد بدول ، تعلن الوصاية على الحريات الفردية والفكرية. ولطالما استخدمت الولايات المتحدة شعارات الحرية وحقوق الإنسان ، غطاء لنشر خطابها الإمبريالي ، وقد افتضحت اليوم ، بحلفها غير المقدس بين الاستعمار والقوى الرجعية والدينية العربية والغربية.

على الأمم المتحدة وأدعياء منظمات المجتمع المدني وشعارات الحقوق والحريات، أن لا يغمضوا عيونهم أكثر ، عن حقيقة وجود بلدان كثيرة -وهي في تزايد - تحظر فيها الموسيقى والفنون وبعض الرياضات البدنية، وهي تسعى لحظر الآداب والنشاطات العقلية الحُرَّة.

كثير من العرب كانوا يصفون بلدانهم بأنها سجون كبيرة، ولكنها اليوم، أكثر من سجون، إنها معتقلات عبودية !

إن الفكر العربي والعقل العربي هو فكر شجاع وعقل شجاع، إنه فكر ابن سينا والرازي، عقل ابن رشد وابن خلدون، وإنه لم يكن ذليلاً وجبانًا يومًا ما، كما هو اليوم، عندما ربط مصيره بالبترودولار أولاً، والخطاب الإمبريالي اليميني ثانيًا.

هؤلاء الذين يتظاهرون بالوصاية على الثقافة والفكر ، على الكاتب والأديب الحُرّ ، الجمعيات الأدبية والفنية الجادة، إنما يفضحون أنفسهم، ويدينونها شرّ إدانة. فليس في عالم الفكر والثقافة قمع ووصاية. وكلٌّ من يستخدم أساليب الوصاية والقمع والاضطهاد هو ديناصور جامد متخلف، معادٍ لحركة الزمن ونهوض الأمة.

انتهى زمن القيود والضوابط المدرسية ، ولا مكان لحُكم وعاظ السلاطين وجندرمة الفكر والثقافة.

لطالما كانت الأصوات ترتفع ضد بعض البلدان العسكرية والدكتاتورية سابقًا، عندما يتعرض كاتب أو كتاب للمحاكمة والمنع، فأين هي أصوات الاحتجاج اليوم، في زمن العولمة والديمقراطية الأميركية وعصر ما بعد الحداثة؟... أم أننا حقًا وحقيقة، في زمن انحطاط ورذيلة، زمن سيء يفيض قيحًا؟... زمن يجري فيه تقزيم الرجال وإذلال الناس، ومسح وجودهم على حيطان الدين زورًا؟!...

لننتصر للحرية والكلمة الحرة والأدباء المبدعين الأحرار والشرفاء...

ننتصر لحرية الإنسان الذي استخلفه الله حُرًّا ومبدعًا... والله ليس إله عبيد وإنما إله أحرار، الله ليس إله ظلمات، إنما إله نور ومحبة !...

انتصروا للحرية... انتصروا للإنسان... فلا حياة بلا كرامة !!...

obeikan.com

الليبرالية والسلفية

في بورصة السياسة (•)

في القرن العشرين، اعتقد الليبراليون العرب، أنهم وضعوا أيديهم على موضع الداء، باعتبارهم [الدين] علّة التخلف في الشرق. والبديل الشافي، جرَّاء ذلك، هو العلمانية والغربنة.

بعد قرون من التخلف والتبعية العثمانية، كان الدين منتهك القوى، متفكك العرى، غير قادر على رفع هامته. وكان تيار الوطنية العلمانية والحضارة الأوربية في أوج تألقهما، ولم يكن من البطولة أو المجازفة التصريح بآراء، أقل ما يقال عنها، أنها كانت منتجات ثقافية غربية، أكثر من كونها، خطابًا عربيًا حضاريًا... هذا جانب...

أما الجانب الآخر، فهو أن التيار الليبرالي العلماني، لم يستفد من خصوصية اكتشافه لاختطاط هوية ثقافية وخطاب مستقل، يشكِّل قاعدة راسخة لثقافة وطنية إنسانية وإطار لمجتمع مدني متفتح، يحتضن الأنساق الاجتماعية والفئات العمرية المختلفة. وبدلاً منه، وجد نفسه، ملتبسًا ومتلبّسًا في حمَأة السياسي السائد، بشدقيه، القومي والماركسي. فما كان له من كسب، في الخيار العلماني، تمَّ التفريط به، في حلبة المساومات السياسية المتقلبة.

فإذا انهزم الخطاب السياسي، القومي أو الماركسي، مع سقوط الشيوعية (١٩٨٩)، وجدت الليبرالية العربية نفسها، يتيمة، تائهة، تستجدي أُبوّة لقيطة.

•

• تعود كتابة هذا الفصل إلى الأول من ماي ٢٧٧٧م، قبل انفجار ما دعي بانتفاضات الربيع وتغييرات الأنظمة العسكرية والوطنية في الشرق الأوسط.

- هيمنة سلفية وليبرالية غربية

بيد أن انهيار الوطنية العلمانية، قاد إلى تنامي المدّ السلفي وغلوّ الخطاب الديني في الشرق (العربي) والغرب (الأميركي) كغطاء (خطاب) للثقافة الإمبريالية الجديدة. فكان وَجَع الليبرالية العربية فادحًا مضاعَفًا، بافتقاد القاعدة المحلية وغياب الظهير الدولي [العالم الاشتراكي والعلمانية الأوربية].

مما جعل بعض رموز الفكر الجدلي الحرّ فريسة للغلوّ الديني المتطرف في بلدان إسلامية عدة، مثل : مصر وإيران والجزائر والأردن واليمن وبنغلادش وأفغانستان والعراق وغيرها. بينما ظهرت الهجرة والنفي بديلاً لا بدّ منه لمن يعجز عن المساومة أو الإذعان للصمت والخذلان. بل أن الهجرة نفسها، تحوّلت إلى بديل مخروق ومنتهك، مع تنامي معدل الهجرة العربية والإسلامية إلى الغرب العلماني الليبرالي، حيث تأتي الدول العربية والإسلامية في مقدمة الدول الطاردة للسكان، بما نطلق عليه حزام الجوع.

هذه الصورة المشوّهة والسّوريالية، لأفراد المجتمعات العربية، التي لم تكد تنجُ من مكائد النظام السياسي التقليدي، وجدت نفسها فريسة للهاث الديني السياسي بزعامة الجماعات السلفية التي أطبقت أنيابها على الجاليات المقيمة في الخارج، لتعزل بينها وبين فضاء الانفتاح، وتحرمها من ثمار حضارة الغرب العلمانية.

إطباق السلفية على مجتمع الهجرة، سحب البساط من تحت أقدام المثقفين الليبراليين العرب في المهاجَر، وفرض عليهم عُزلة جديدة، تعيق نشاطهم الحضاري وتواصلهم الاجتماعي، ليس مع الوطن حسب، وإنما مع نسيج الجالية العربية، والتيارات النافذة فيه.

•

- إشكالية الثقافة والمؤسسة

من أبرز عيوب العقل العربي، باعتباره منتجًا للحضارة والثقافة، عجزه عن بناء قواعد تحتية أساسية قادرة على رعاية حركة الثقافة والفكر والرأي الحرّ وحمايتها، طيلة التاريخ العربي. مما يجعل جُملة المنتج الفكري والثقافي العربي والإسلامي المعروض حتى الآن، موضع التساؤل والشكّ. غياب الخطاب الثقافي والهوية الثقافية والمنظومة الثقافية المستقلة بذاتها، جعل منها تابعًا ذليلاً وقزمًا مشوّها في الخانة الخلفية للسياسي والديني والاجتماعي القبلي. وعند محاكمة التردي الثقافي أو الاجتماعي للمثقف، لا بدّ من استحضار هذه البيّنة، وامتلاك الجرأة الكاملة، لتوجيه الاتهام والإدانة، والاعتراف بالعجز والتخاذل. وما بدأ خطأ، يستمر خطأ. وما أقيم على باطل، فهو باطل.

يقول سعدي يوسف (*) في حوار معه : [لا يوجد نقد أدبي في ظل انعدام نقد سياسي] !. هذه الجدلية الفكرية قد تكون مغيّبة عند كثيرين اليوم، في خضم فوضى المنطق وحكم اللا معقول. مطر في الصيف وربيع في صحراء.

إن الثقافة هي التي تنسج الفكر الديني وتصيغ مبادئه وأُسسه، وليس العكس. والدولة هي التي تقنِّن حركة التيارات الاجتماعية والسياسية وتحافظ على معادلات التوازن والاتزان الداخلي، وليس العكس.

إن الدين لا ينتج ثقافة ولا يصنع مجتمعًا ولا يقيم مدنية أو يبدع حضارة. الذي يخلق هو الفكر والثقافة. واستلاب الثقافي أو السياسي لا يعني رصيدًا للفكر الديني الذي زاد من حدّة التشرذم والصراع وعدم الاستقرار والفوارق بين البشر. وفي ذلك انحراف عظيم عن مبادئ السلام والمحبة والإخاء، القواعد الاجتماعية والإنسانية لجمهورية الإنسان.

●

● سعدي يوسف (١٩٣٤) شاعر ومترجم ومناضل سياسي ، مقيم في لندن.

- علقم و حصرم و ضرس

بمثل هذه المرارة، تنشأ أجيال من شباب عرب يتخذ من أبطال أفلام الكارتون رموزًا فكرية وجهادية تقودها إلى الفردوس. أجيال تكفيرية، تعتبر نجيب محفوظ ملحدًا (دون أن تطلع على أدبه وفكره)، وترى في من لا تلتحف (الحجاب) مومسًا تستحق لعنة الاغتصاب والانتهاك، دون إدراك واعي للخلق والخُلق، وأسس السّويّة البشرية والقيم الإنسانية النبيلة. أجيال ترى العالم خلل ثقب أسود، لا يتكشف عن غير (أفاعي فردوسية)، وصور اللعنات.

الوطنية العلمانية قامت على المخابرات والسجون. والسلفية الدينية استبدلت ذلك بالجهل والتحريم والإرهاب.

كان العالم الغربي يعيب على التجربة الشيوعية الصينية اعتماد (الزي الموحد) بين فئات الشعب والحكومة، ولكنه عاجز أو أعمى اليوم، عن رصد الزي الموحد للجماعات السلفية وهو يغدق عليها المعونات والتراخيص.

يقول أحد العلمانيين الألمان العاملين مع الجاليات: كنا نحصل على دعم جيد من السلطات المحلية، ثم بدأ الدعم يتراجع، وقبل عامين، انقطع الدعم نهائيًا، بينما تصاعد مستوى دعم الجمعيات الدينية، وصار لها من الامتيازات، ما لا ينسجم مع ما يتردد في لغة الإعلام. هكذا اضطرت جمعيات علمانية لإغلاق أبوابها، أو اعتماد موارد ذاتية لتمويل نشاطاتها، وتكاليف مقراتها.

•

- البراغماتية دين العصر

في خضم هذا الإطار، شهدت الساحة الثقافية عملية انزياح سوريالي، لقوائم من مثقفين ليبراليين سابقين، يطوفون على أمواج التيارات الدينية السائدة، ويتصدرون واجهاتها التنظيمية والدعائية. والمضحك، أن الماضي الليبرالي العلماني لبعض الشخصيات، يُحتسَب في رصيد الشخصية ذات التمثل الديني

الجديد. بالنسبة للفكر الديني ، هو دليل هزيمة العلمانية لصالح الدين. ولكن بالمنظور العلماني ، عملية تخاذل وانسحاق. وفي السياق الفكري ، تلقيح ثقافي متبادل.

قراءة المشهد الإعلامي الراهن ، بحسب هذا تتوزّع إلى :

١. تحوّل بعض الليبراليين من تيار العلمانية إلى التيار الديني.
٢. تصدر علمانيين سابقين واجهات مؤسسات ومراكز سياسية دينية.
٣. اتساع حجم المؤلفين والكتاب في مجال الدين والترويج له.
٤. ظهور بوادر جيل وأدب ثقافي ديني.
٥. اتساع أجيال من أكاديميين ومهنيين ذوي ميول وتوجهات دينية أو مغالية.
٦. تحوّل أتباع المؤسسة السياسية العلمانية السابقة لتغذية التيار الديني السائد والتمذهب له.
٧. شيوع البراغماتية الميكافيللية ، والشخصية اللامنتمية واللامسؤولة ، على مذبح الأنانية.

•

- التفكّر والتدبّر... والتحضّر

في الغرب ، عندما يحرز التلاميذ مستوى متقدمًا ، توزع المعلمة على كل منهم ، قطعة شوكولاتة ؛ أما في الواقع العربي ، فإن الشوكولاتة تنثر على الرؤوس ، ويتصارع التلاميذ عليها.

صورة تستدعي الكثير من التأمل في قواعدنا التربوية التحتية ومبادئنا الفكرية والاجتماعية. فمن هناك ، من نقطة داخل الدماغ ، المعبأ ببرامج وإرشادات [soft ware] يعود بعضها إلى زمن الطفولة والخوف ، وبعضها إلى إرث البدائية والمشاعية القبلية ، تنطلق إيعازات وأنساق فكرية وسلوكية ، ترسم صورة الشخصية النشاط الاجتماعي اليومي.

الإنسان يفكِّر، حتى عندما لا يفكِّر.
ثمة عملية تمازج وتداخل بين الفكر والوعي والروح.

في تعبير للألماني مارتن هيدجر / [1889- 1976] (Martin Heidegger)[•]: ضرورة التفكير أن الإنسان لا يفكر أنه لا يفكر. وفي تعبير آخر، أن قيمة التفكير عندما يفكِّر الإنسان بيده. من غير الصواب القول، فلان لا يفكر. لأنّ كلّ ما يفعله ويقوله المرء هو إفراز فكري توجهه إيعازات محددة. والإيعازات عبارة عن مخرجات ذهنية [feed out] في المرتبة الأولى، ساهمت في تشكيلها مدخلات [feed in] سابقة. نفس الإيعازات تحوّلت إلى مدخلات [feed in] في المعادلة الثانية، ساهمت في صياغة سلوك أو لفظ معين [feed out].

ولما كانت طبيعة الثمَرَة من أصل الشجَرَة، فإن صور الفوضى في السلوك والاتصال، دالة على الفوضى والبدائية في مكونات الشخصية الاجتماعية والفكرية.

•

- تأملات في الحالة العراقية

من الخسائر المسجلة في مكتبة الفكر العربي، بقاء الحالة العراقية، وتحولاتها العنفية والعنيفة، بعيدًا عن الدراسة والتحليل والمقارنة من قبل الجامعات والباحثين العرب. بينما تظهر بوادر اهتمامًات ودراسات غربية جادة في الموضوع.

علاقة الغرب بالحالة العراقية لها خلفياتها وآفاقها – الكولونيالية الإمبريالية – ، التي تجعل مجال الفائدة محدودًا للقارئ العربي عند الترجمة. بينما العربي في حاجة أشدّ لفهم الوضع العراقي وملابساته، بطريقة علمية وموضوعية،

• مارتن هايدجر، من فلاسفة الوجودية الإنسانية.

للخروج منها بدروس جادّة ، سوف يشكِّل غيابها نكبة حقيقية للعربي في المستقبل القريب.

بعبارة أخرى ، ما الذي يمنع تكرار ما حصل في العراق ، أن يحصل في بلد آخر ؟ (•)... أليست البلقنة واللبننة والأفغنة والعرقنة ، أغطية متعددة من نسيج واحد ؟!. أم أن الكبرياء والاعتداد المغالي يكفي اليوم شرور الغد.

شهد العراق أكثر من انقلاب في الصُعد الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية. وكما يقول المثل العراقي ، لم يبقَ حَجَر راكز لم يتحوّل من مكانه !.

هذا التحوّل والانقلاب يستلزم الإدعاء أو التسليم بحالة (استقرار) نسبي سابقة ، خلال النصف الأول للقرن العشرين ، في ظل العهد الملكي. إذ كانت ثمة تيارات سياسية وفكرية وتجاذبات اجتماعية وعشائرية محدودة وواضحة وشبه مستقرة.

انفجرت عقب أول انقلاب عام (١٩٥٨م) عشيّة انقلاب الضباط (الأحرار) وقيام الجمهورية. وكان إسفين الشقاق هو قانون الإصلاح الزراعي رقم ٨٠ الذي نجم عنه أو عن سوء تطبيقاته :

١- هجرة الفلاحين من القرى نحو المدن ، ومن الجنوب نحو العاصمة بغداد ، مشكلين نواة مستوطنة سكانية سرطانية على جانب بغداد-خلف القناة / خلف السدّة- ، ازداد حجمها بالتدريج وتزايد تأثيرها في حياة العاصمة حتى غلبها على أمرها ، ومسخ صورتها المدنية التعددية لصالح الريف والتخلف والتشيّع.

٢- تراجع الإنتاج الزراعي جراء ترك الفلاحين لأراضيهم ، وهجرة كبار الإقطاع والمالكين نحو المدن أو الخارج.

٣- تجدد الحرب الأهلية الكردية العراقية في (أيلول ١٩٦١) جراء رفض

• كُتب هذا الموضوع العام ٢٠٠٧م، قبل أحداث الربيع العربي عام ٢٠١٠م.

obeikan.com

الإقطاع الكرد تطبيقات قانون الإصلاح الزراعي وخضوع قائد الحركة الكردية مصطفى البرزاني لمطاليبهم.

٤- ضرب القوى الرأسمالية الصناعية والإقطاعية ومغادرتها البلاد، مما ترك الساحة للقوى السياسية المحدَثة وصراعاتها على السلطة وحكم البلاد.

٥- غياب التيار المحافظ (الملكي)، جعل الصراع بين التيارين القومي والماركسي، الذي انتهى بانقلاب عسكري يوم (٨ شباط ١٩٦٣م) ودخول البلاد نفق نفاق أيديولوجي شعاره (جئنا لنبقى)، (صعدنا إلى السلطة بقطار أمريكي)، (انقلاب شركات النفط الاحتكارية).

•

اجترار التاريخ والحصرم

ليست مصادفة، أن هذه المقولات التي أشيعت في الستينات، هي نفسها التي استحكمت المشهد السياسي العراقي بعد أربعين عامًا. المصالح النفطية، القطار الأمريكي، جئنا لنبقى. تغير النظام والوجوه، والمضمون واحد.

صعود الأنظمة القومية والعروبية في القرن الماضي، تبرّك بدم القربان الشيوعي سواء في مصر أو العراق. واختزال التيار الشيوعي من المشهد كان فاتحة لاختزال التيار العلماني / الليبرالي من الساحة. نتائج هذا الاستعداء الضيق الأفق تمثلت في جانبين أو ثلاثة :

١- هيمنة حكم الرأي الواحد وظهور الدكتاتورية.

٢- تململ واشتداد التيار الديني في ملء الفراغ السياسي والخطاب الليبرالي المختزل.

٣- انعدام حالة الاستقرار السياسي وتوالي المتغيرات العاصفة حتى اليوم.

فالتيار الديني المُسيس في العراق، والذي تعود بوادره للستينات (حزب الدعوة

الحاكم منذ ٢٠٠٥م)، كان نتيجة لاختزال الفكر الليبرالي من الخريطة الثقافية، ونهج الحكم الشمولي (البعثي) تمهيدًا لحكم شمولي مقارَن (الدعوة الإسلامية) أو (الصحوة) في قراءتها الأيديولوجية المبنية على ألفباء التشيع الاثني عشري.

الالتصاق بالسلطة، لن يختلف بالحالين، والرهان الأميركي، كما أكدته الإدارة الحالية، السيطرة على الأوضاع (سياسة القبضة الحديدية والجدران العازلة داخل المدن). وتمديد المهلة للمالكي أكثر من ستة أشهر(٢٠٠٦م)، تعني القبول الأميركي سيما ضمن وصول الملف الإيراني لدرجات سخونة حرجة، يلعب فيها حزب الدعوة دورًا مكوكيًا يرسخ أقدامه في السلطة.

•

أين هو الثقافي العراقي والفكر الليبرالي العلماني؟...

هذا هو السؤال... إلى وقفة مقبلة...

obeikan.com

أي سؤال عن العراق، أو ما بعد العراق، متأخر جدًا ، على صعيد الزمن والاستراتيج. ولا غرابة في هذا، فنحن أُمة عاجزة عن الفعل. والعجز يتضمن التأخر عن الزمن والإرادة والتفكير في آنٍ واحد.

نحن أُمة ، لا تفعل، وإذا فعلت، فعلى حساب نفسها، وفي اتجاه ومضمون يعادي مصالحها. لذلك، كانت أكثر فترات السلام والاستقرار في تاريخنا، تلك الخالية من تدخلنا وفعلنا ؛ وبالمقابل، كانت أتعس فترات حياتنا وتاريخنا، تلك الحافلة بتدخلاتنا ونشاطاتنا التي ضيعت البقية الباقية من ذرات التراب التي جبلنا منها، لتكون موطأ للأجنبي ومزارع لدمائنا، وعيدًا علنيًا لأحقادنا وثاراتنا البينية الداخلية ، بينما يتبرع الأعداء بوضع الأسلحة والإمكانيات التدميرية والإعلامية بين أيدينا.

أقول العراق وما بعده، وكان الأحرى القول : لبنان وما بعده، بل الأحرى القول فلسطين وما بعده، إن لم يكن على الإطلاق، سايكس بيكو وما بعدها. وغدًا سنقول : سوريا وما بعدها...

فنحن بلا ذاكرة، ولا نعترف بالزمن كقيمة حضارية وتاريخية. وطالما كان الزمن مفهومًا فيزيائيًا، فهو دالة الحركة، ولما كان موقعنا من الحركة نفيًا، كان الموقف من الزمن إثباتًا لنفي.

– لماذا العراق؟...

ما يزال ذكر أسماء البلدان والأنهار والأشخاص فعلاً استفزازيًا لنعرة التنابز والتفاخر، كما رشحت عنه مسودات تراثنا الاجتماعي اللاقومي واللامدني.

لقد بقي العرب مند قصة سد مأرب بحسب رواية ابن اسحق أشتاتًا متشتتة وجماعات متشرذمة، لا يعنيها غير قوت يومها وسباقات المفاخرة والتنابز على

بعضها. وبأي شيء يتنابز ويتفاخر ويتنافس من لا يزرع ولا يصنع، ولا يحسب ولا يكتب، لا يسأل ولا يفعل، لا يعلم ولا يتعلم، وليس له شأن في علم أو حكم أو حزم.

لقد راهن رواد القومية العلمانية المتأثرة بالأفكار الغربية والكمالية، على عاملي الزمن والحداثة في ولادة مجتمع عربي جديد، يأخذ بناصية الإنتاج والتقدم، فأخضعت مفردات القومية والعلمانية والحداثة لسوق المنابزة والأثرة البدوية.

ومن بين كل مفردات الحياة واللغة، كانت الوحيدة المستعجمة والمستقبحة دون أنماط الثياب والطعام ومستلزمات الحياة والترفيه والحرب والسياسة. فكان من الطبيعي التغاء وعرقلة مفاهيم الشعب والأمة والمجتمع والانسجام الاجتماعي والخطاب القومي الاستراتيجي الحضاري، وتستمر صراعات الحكام ونعرات الطوائف، وثقافات التشرذم والاحتراب الداخلي.

وهكذا جرى الحكم بالموت والإعدام على الجامعة العربية ومؤسساتها وأهدافها، لتتحول إلى كراسي للتنابز ومورد ارتزاق جيش من الموظفين يعتاشون على صفقات الفساد الإداري.

لا غرو، أن حال العرب والجغرافيا العربية في العهد العثماني، كان أفضل منه من حالهم في ظل اثنتين وعشرين دولة ومنظمات واتحادات وجامعات وأحزاب وجمعيات عربية وإسلامية، لا فعل ولا شغل لها غير السمسرة بدماء العرب وحياتهم.

شهدت مشاريع التمدن والحداثة ظهور نخب أكاديمية وتكنوقراط وبوادر خطط تنمية اجتماعية واقتصادية وسياسية، فإذا بها تتعرض للمزايدة والتصفية على أيدي أحزاب أجنبية الهوى من بنات الحرب الباردة، تارة ؛ لتعقبها ولايات العسكر والعنف الثوري، وصولاً للسلفية الدينية وحكم الغوغاء والفوضى والفساد.

فالتغت المضامين وأفرغت الهياكل والعناوين، واستشرت العقليات البدائية غير المتمدنة والمعادية للتحضر، إلا ما ما يسد حاجتها ويؤمن بها أساسيات وجودها الشخصي أو العائلي أو الطائفي أو السياسي، وما ذلك إلا بالتواطؤ والانبطاح للأجنبي واستعداء الجار والشقيق.

وبعد انتفاء والتغاء مفاهيم الوطنية والقومية والسلم الاجتماعي، يجد الفرد الحر نفسه مكشوفاً للجوع والرصاص من كل الاتجاهات. فالدولة والدين والحزب تحولت إلى دولة المافيا ودين الطائفة وحزب وكلاء وجواسيس لخدمة أجندة إقليمية ودولية.

والفرد الذي لا يضمن لنفسه حزبًا أو طائفة أو مافيا، تضمن احتياجاته المعيشية والأمنية والسياسية، يتوسل الهجرة ويبحث عن وطن بديل.

ويبقى السؤال؟...

ما جدوى الدولة ومؤسساتها وأنظمتها الضريبية والدموية طالما لا تخدم كل أبناء الوطن، وتختص بطائفة الحكم والجالية السياسية والأغلبية الدمغرافية المدعومة بصناديق الديمقراطية الفاسدة شكلاً ومضموناً.

كيف تنسجم ذروة التخلف والقناعات البدائية والخرافات الدينية، مع ذروة التقدم المدني والاجتماعي الذي استغرق قروناً وحروبًا ودماءً من تاريخ أوربا، حتى يصل للحالة الحضارية القائمة على الاستقرار السياسي والمجتمع المنتج وعقد السلم الاجتماعي الذي تمثل فيه المؤاخاة والمساواة والعدالة الاجتماعية أركاناً مقدسة.

وسائل التعليم الحديثة مع نشأة الدولة العربية أُدخلت بفعل السياسات الغربية، ومع ذلك جرى الالتفاف على أغراض التعليم ومناهج الدراسة لترويج الثقافة القبلية والطائفية وأيديولوجيات جماعات الحكم.

ومع مرور قرن على دخول الحداثة، لم تجد الحرية فضاءً عربيًا في التعليم أو

الثقافة أو المعتقد أو الإعلام أو السياسة، ويتعرض من يتداولها أو ينادي بها إلى أحكام تكلفه مصيره. وفي الربع الأخير من القرن العشرين كانت النُخب التنويرية المحدودة تعيش حالة من الاغتراب والتقية والملاحقة، ومعظمها يعيش في الغرب أو خارج بلده.

في نفس الاتجاه، انحرفت السياسات الثقافية الحكومية والأهلية مع بداية سبعينيات القرن الماضي، للترويج للتراث والتاريخ والفكر الديني السلفي، بدء من مناهج التعليم والخطاب الإعلامي والسياسي ودور النشر، وسادت المجتمعات العربية أفكار وشخصيات ونخب دينية، وبشكل انعكست آثاره التدميرية على المجتمعات ومستقبل البلدان العربية الشرق أوسطية نفسها.

وجاءت إجراءات الخصخصة وإملاءات البنك الدولي والديمقراطية المشوهة لتطيح بالأنظمة العلمانية، وتروج للفوضى والحكومات السلفية، وتصفية منجزات الحداثة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

العنف والفوضى وثالثهما التخلف، هي سمات العالم العربي في مستهل الألفية الثالثة. وتعود أصولها ومظاهرها المحتذاة تحت عنوان السلفية والابتعاث لما قبل ألفين أو خمسة عشر قرنًا من السنين.

وعندما يفرض على الناس العيش في ظل تقاليد ما قبل المدنية والتحضر، بينما تنتشر وسائل الاتصالات الحديثة ومدنية ما بعد الحداثة الغربية، يمكن استشفاف حجم الازدواجية والانفصام التي تعيشها الشخصية الاجتماعية، والإفراز المنطقي لها الممثل بالعنف أو الالتواء أو الانهيار.

من جهة أخرى، لا بد من تأشير الظاهرة الأكثر خطورة في الشرق الأوسط في أعتاب الألفية، ألا وهي تجارة الموت والمجازر الشعبية والتصفيات الجسدية على أيدي مافيات مأجورة. وكان معدل القتلى في بعض السنوات العراقية عقب الغزو الأميركي [٥٠-١٠٠] قتيل يوميًا. ناهيك عن الجرحى

والمعوقين وما يرافقها من تخريب البنى التحتية والمؤسسات المدنية والمدن والآثار.

ومن الغريب أن السياسات الغربية التي كانت تتهم بعض الأنظمة الثورية بمخالفات مواثيق حقوق الإنسان ، تتجاهل تمامًا حفلات القتل والمجازر الجماعية المزدهرة في بلدان عربية مند ثلاثة عقود.

إن الحصيلة العامة لمجريات الألفية أو القرن الأمريكي ، هي تدمير مقومات الحياة والمرتكزات الأساسية للدولة المدنية والمجتمع العصري ، ودفع العرب لدهاليز فترة مظلمة تحكمها جماعات الفكر السلفي الرجعي وبما يحكم سيطرة الغرب الكاملة على المنطقة وتحويلها إلى سوق للاستهلاك والحصول على المواد الخام.

obeikan.com

النخبة... غياب أم تغييب؟!

لابد من الأخذ بالتقسيم الاجتماعي بين النُخبة ، والعامة.

إن الطفرات الوراثية والإبداعية تتحقق لدى أفراد ، فرد في جيل ، قبل أن تستفحل وتتحول إلى حالة عامة (الحالة المصرية بعد ٢٥ يناير مثلاً).

وعندما أقرأ عن تاريخ المملكة البريطانية في مجالات الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد والأخلاق والدين ، أرى دور النُخبة والتجمعات البسيطة في أيامها وما أسفرت عنه منجزاتها وأنشطتها في ذلك الوقت ، أو ما ترتب على دراسة أعمالها ونشاطاتها من قبل أجيال لاحقة ؛ أندهش أمام بساطة حياة أولئك الأفراد وما واجههم من ظروف وتعقيدات وتفاهات أحياناً ، ولكنها بالنتيجة ، أضافت قطرات زاخرة في بحر الفكر والثقافة البريطانية اليوم.

شخصية ملغزة مثل شكسبير لم تمنع بلده من الاحتفاء بآثاره وفكره ، بل تحول إلى ألفباء الحياة الأوربية. ولا يمر يوم أو أسبوع في ألمانيا لا تكتب عنه الصحف ويورده التلفاز. ولشخصيته مكان في مواد التعليم الابتدائي في كثير من بلدان أوربا.

تعتدُّ بريطانيا بيرنارد شو الفيلسوف والأديب الموسوعي ، بينما تحتفل به أيرلندا لكونه أول أيرلندي يحصل على جائزة نوبل. وما من خلاف بين أيرلندة وإنجلترا في هذا الصدد.

كما تعتدُّ الكنيسة بوليم بليك وتشارلز دارون اللذين أحرجاها بنقدهما المبكر للفكر الديني.

الميول الاشتراكية والشيوعية لبيرناردشو وأورويل وباوند لم تمنع الدولة الرأسمالية من الاعتداد بأعمالهم وأفكارهم التي تشكِّل لبنة أساس من تاريخ الفكر والثقافة والسياسة البريطانية.

كل هؤلاء نخب خدموا المجتمع، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ولكن بلدانهم تعتز بهم بدون تهميش أو إلغاء أو اعتماد نزعات انتقائية أو استبداد عرقي أو ديني أو سياسي.

فلا غرو أن يكون للنخب الأكاديمية والثقافية والاجتماعية دور محدود وبدائي في العهد الأول لبناء الدولة العراقية، لكن مجيء الجمهورية قلب المعايير الاجتماعية والقيمية في البلاد، وجرت عملية تدمير وتهميش للنخب، وربطها بمؤخرة العربة. ثم تبارت الحكومات المتتالية في تدمير وتهميش النُخب، حماية لشرعنة وجودها السياسي.

في كتابه، وصف حنا بطاطو تنامي حجم العسكر ودورهم كطبقة نخبوية جديدة دخلت ساحة الصراع السياسي عبر إزاحة النُخب التقليدية السابقة.

وشهدت قيادة حزب البعث صراعًا بين الجناح العسكري والجناح المدني، وبشكل تدريجي ومستمر [مايو/نوفمبر ١٩٦٣- ١٩٦٨م]، انتهى لتسيد طبقة الفلاحين مقاليد السلطة على حساب المثقفين والأكاديميين.

كأنما كتب على العراقيين، مع تغير كل حكومة أن يمسحوا آثار القديمة ويتبرءوا منها، ويعلنوا ولاءهم للحكومة الجديدة، أو ينولهم العقاب.

الحكومة ليست مجرد هيئة إدارية لتسيير أمور البلاد وتحسين مستواها، وإنما هي تقدم نفسها بمثابة نخبة اجتماعية سياسية على قطاعات المجتمع الالتفاف حولها والتصفيق الحاد والمستمر لها، وفق آلية الثواب والعقاب.

حكومة صراع طبقات وطوائف ومراكز نفوذ تقليدي مرتبطة بقوى خارجية.

الحكومة – غير الشرعية/الأخلاقية – تستخدم أجهزة الدولة ومؤسساتها لخدمة أغراضها الخاصة واستمالة المجتمع للخضوع لها. والمدرسة والجريدة والوظيفة الحكومية هي ممتلكات خاصة للخطاب الحكومي، لا يمكن المرور بها دون توقيع البراءة والولاء.

والأنكى منه، تتحول المعاملات الإدارية المتعلقة بحقوق الأفراد وحياتهم إلى رهينة ومناسبة لإذلال المواطن لتوقيع البراءة والولاء، سواء عن طريق الرشوة أو التزكية الحزبية أو التهميش والحرمان.

في التسعينيات رافقت أحد الأخوة اللبنانيين لمراجعة سفارة بلده في فيننا لتبديل جوازه للمرة الثالثة. إذ عقب تغير كل حكومة تتغير الإجراءات وتجدد الجوازات (!!). ولأسباب معينة كان متوجسًا من المراجعة، وربما بحاجة لمن يخبر عائلته إذا اختفى في السفارة. عندما تقدم بالطلب دعاه القنصل للمقابلة. حضرت معه المقابلة. نهض لاستقبالنا كأصدقاء. ثم دعانا للجلوس، وتحدث بكل ودية كأصدقاء قدماء، اعتذر عن كل الازعاجات والممارسات البيروقراطية، راجيًا نسيان كلّ شيء واعتبار الأمر على ما يرام بعد الآن.

انتهت المعاملة بشكل حضاري ولائق. ولكن هل كل القناصل كذلك؟... ولا كل موظفي الحكومة أيضًا؟.

كم من الموظفين والقناصل والمسؤولين يشعرون بمعاناة المواطن الغريب والأسير والمنزوع الحقوق في بلده، لمجرد اختلاف العقائد أو الأيديولوجيات وكل حاكم يتصور نفسه أكثر وطنية وشرفًا ممن عداه.

مع تغير الحكومات، -وهو تغير انقلابي-، تتغير هيكلية المجتمع وأولويات الدولة، وتضطرب الأدوار ويظهر لاعبون جدد، يعرفون طبيعة نهايتهم فيخدمون أغراضهم الخاصة قبل حلول موجة جديدة.

إن المشكلة المترتبة هنا هي انعدام النُخب الجديرة. فالنظام السياسي المهترئ المدعوم بعوامل خارجية وموازين صراعات دولية وإقليمية ومحلية لا يصنع نخبة ولا ثقافة وتنمية ولا هوية وطنية.

تدمير النُخب والمزايدة عليها، هو تدمير للعقل وتذييله، لصالح صراعات غريزية جسدية مؤقتة. وفي مقدمة مظاهر الغريزة الخوف والغيرة والحسد

والحقد ونزعة الانتقام والإذلال وجداول الولاء والمحسوبيات المترتبة على ما سبق.

في المثال البريطاني يمثل الملك رمز الوطن والضمير الأعلى المراقب والمحايد. وهذا ما يتجسد عبر آليتين : الانتخابات وترشيح رئاسة الوزارة من قبل الملك/الملكة. فالملكة هي التي فضلت دزرائيلي على غلادستون الذي عدّه السياسيون نوعًا من المجازفة حينها. ولكن دزرائيلي أثبت جدارته في خدمة مصالح بلده. والمجتمع البريطاني ما زال لليوم مجتمعًا طبقيًا ونخبويًا. وتلعب النُخبة دورها التاريخي في المحافظة والمراقبة والبناء والإضافة. ورئاسة الحكومة رغم صورتها السيادية إلا أنها لا تتجاوز النُخب ولا تنطق من ذاتها.

obeikan.com

ولكن ما هو الواقع

فوجئت مرةً عندما نعتتني اثنتان من المقربات إليَّ بأنني شخص فاشل، وكنت حينئذٍ أعتدُّ بنفسي كشخص حافظ على مبادئه فوق ثلاثين عامًا - آخرون أيضًا من هذا الباب، زهدوا في الدنيا وقبلوا أن يخرجوا منها بشروى نقير -، لم أملك إزاء ذلك غير أن أبتسم تقديرًا لمشاعرهما النبيلة.

لكن مثل هذا الرأي ليس قصرًا على أصدقائي وصديقاتي ولا عليَّ شخصيًا، فكثيرون هم من يستخدمون هذا المنظار أو المنظور، ممن يتفقون مع هربرت سبنسر في (أن الحياة هي الانسجام أو التكيف مع الواقع).

لا أنكر هنا عدم قدرتي على مسايرة الواقع. الواقع بكل تلاوينه ومستوياته، لإيماني بأن الواقع العربي أيديولوجي شمولي مثل أنظمتنا العربية، ولا أستطيع المراءاة بإدعاء وجود واقع اجتماعي وواقع ثقافي وواقع سياسي وواقع اقتصادي وواقع ديني وواقع فلسفي أو وجودي، وكل منها مستقل بتعريفه ومنفصل عن سواه. وهذا ما جعل التقاطع مع أحد مستويات الواقع العربي، اختلافًا مع كل الواقع بقضه وقضيضه.

وللبقاء في نطاق التجربة، وباعتباري من بلاد (شرق المتوسط) حسب تعريف عبد الرحمن منيف (•) حيث يسيل النفط والدم والسائل المنوي سويًا، كنت في صغري أسخر من سواليف والدتي الخرافية عن الجن والملائكة والطقوس والتقاليد الدينية المقترنة بالنذور والقرابين والشموع، وأحلامها عن رجال صالحين يرتدون ثيابًا بيضاء أو خضراء أو حمراء أو سوداء، تعرفهم بأسمائهم، وتجبرنا على ارتداء ثياب سوداء أيامًا معلومات من كل عام خشية انقلاب الأرواح علينا وإصابتنا بسوء.

• الروائي عبد الرحمن منيف [١٩٣٥- ٢٠٠٤م] كتب عدة روايات منها ثلاثية (شرق المتوسط).

ومع تطور وعيي الثقافي والسياسي اكتشفت أن البلد يحكمها (الدولاب الدموي ببغداد) حسب توصيف الشاعر مظفر النواب (•).

و(هل مرّ عام والعراق ليس فيه جوع) / السياب (•)...

و... (عجبت من خضر جنات منشّرة .... على الضفاف ومن جوع الملايين / الجواهري (•)

(أنظر لوضع بلادنا ..... غلط يصحّح في غلط) / علي الشرقي (•)

•

تخللت طفولتي صور فيضان مدمر وأحداث حظر تجوال وحرب أهلية، ثم حروب الخليج الأولى والثانية والحصار وما تلاه حتى اليوم (•). وكنت مثل معظم أبناء جيلي مادة تلك الحروب والظروف السياسية والاقتصادية والأمنية غير العادية وقد تجاوزت الخمسين وبلدي ينتقل من كارثة لكارثة أكبر.

وفي خلال كل ذلك يتكاثر الناس ونفوس العراق في تزايد وقفزات، دون أن يفكِّر أحد في أي ظروف وأجواء غير طبيعية يترعرع المواليد الجدد وانعكاساتها على تكوينهم النفسي والاجتماعي والفكري، وبالتالي شخصياتهم واتجاهاتهم السلوكية عندما يكبرون.

ومعظم الحراك الاجتماعي والسياسي والإرهابي اليوم هو من مواليد أجواء الحصار التسعيني الذي دمر البنية الاجتماعية والقيمية للعائلة والمجتمع العراقي!.

- **الشاعر مظفر النواب (١٩٤٤) غادر العراق عام (١٩٦٤) ويقيم منذ التسعينات في سوريا.**
- **الشاعر بدر شاكر السياب (١٩٢٦- ١٩٦٤).**
- **الشاعر محمد مهدي الجواهري (١٩٠٠-١٧٧٧).**
- **الشاعر علي الشرقي (١٨٩٠-١٩٤٤).**
- **استمر الحصار الاقتصادي الدولي على العراق من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠ حتى الغزو العسكري الأمريكي في مارس ٢٠٠٣ والمستمر حتى الآن.**

ما هو الواقع المطلوب الانسجام معه خلال تلك الحياة؟.
وما هو معيار الفشل والنجاح في ظل ظروف تعسفية مفروضة كالقدر؟...

الحقيقة أنني لم أخسر شيئًا ، ولكنني كسبت نفسي ، هذا على صعيد شخصي طبعًا ، رغم أنني فقدت حياتي الطبيعية ، والحياة فقدت قيمتها بالنتيجة ! - لأن الحياة في الواقع هي وقت ضائع!-.

أما على صعيد عام فلم أهتم بالمزايا والامتيازات التي تقدمها مؤسسة الثقافة الرسمية ، - إذ اعتبرت نفسي كاتبا رضيت البقاء على هامش المشهد أو خارجه! -. هل كانت هذه خسارة؟...

عندما توسعت في النشر خارج العراق سألني البعض : لماذا لم نقرأ لك من قبل؟... لماذا؟...

المشكلة أن إنساننا الشرقي لا يصنع واقعه ، وإنما يستقبل ما يقابله بلغة القدر والمرسوم ، وما عليه غير التعامل مع الواقع بحسب ما يناسبه ويخدم حاجاته ومصالحه ومزاجه الشخصي.

فالواقع يتغير ، ولكن الناس لا تتغير ، الناس تفعل نفس الشيء في كل زمان ، تميل مع الريح حيث مالت ، وبالتعبير العراقي ، كل من يتزوج أمي أقول له: عمي !... ملكيين أيام الملكية ، وجمهوريين أيام الجمهورية ، بعثيين أيام البعث ، وسلفيين أيام السلفية.

عندما سقط الملك سخر منه الناس وانطلقت تظاهرات جماهيرية تندد بالحكم الملكي وترحب بالجمهوري. يقول شهود عيان أن الناس رفعوا الملك وهو داخل السيارة في شارع الرشيد من وسط بغداد في يوم الثالث عشر من تموز عام ١٩٥٨م ، واحتفلوا بسقوطه في اليوم الثاني.

وفي نفس المكان من شارع الرشيد ، احتشدوا لتحية عبد الكريم قاسم. وعندما بدأت الثورة المضادة في الرابع عشر من رمضان / فبراير ١٩٦٣م ، تخلى

الناس عن الزعيم. فارتدى بدلته وعبر النهر إلى مبنى الاذاعة حيث قُتل هناك وحيدًا وبدأ حكم جديد، وهكذا دواليك.

إن الفرد الذي لا يتخذ موقفًا ولا يصنع واقعه الشخصي والوطني المسؤول، يصدر عن براغماتية عميقة في التسلل عبر ثغور كل تغير طارئ في حركة الأوضاع.

وفي حمأة اللهاث وراء النزعة الفردية والانتهازية والوصولية لا يمانع في سحق أخيه وجاره وابن وطنه... ولماذا يقترن كل تغير سياسي أو عسكري بأعمال الفرهود والنهب وتفريغ جرائم القتل والانتقام.

وفي كل وضع سياسي جديد يلعب (المخبر السري) والوشايات الانتقامية والكيدية دورًا رئيسيًا في تغذية الفوضى والمجازر التي يتحمل وزرها النظام أو شماعة الإرهاب مند بدء الاحتلال لليوم !...

في خلال حكم البعث على مدى خمسة وثلاثين عامًا لم تظهر أي حركة معارضة وطنية حقيقية تمارس دورها السياسي والوطني في حماية الشعب من استبداد السلطة وشرورها. وكان عدد المنتسبين في حزب البعث العراقي يفوق ثمانية ملايين، أي حوالي نصف المجتمع يومذاك. والنسبة العظمى من الناس تعمل في مؤسسات الدولة، وعدد منتسبي القوات المسلحة يقارب المليون. ورغم استمرار حرب الثمانينيات ثمانية سنوات، فقد كانت مصدر تحول اقتصادي واجتماعي في فئات المجتمع المختلفة، سواء عبر الرواتب والمكافآت المجزية للمقاتلين وعوائلهم، أو هبات الأرض والسيارات والأموال الممنوحة للمتطوعين في الجيش أو المعوقين والشهداء.

ويمكن للباحث الإحصائي رصد نسبة الزيادة في حيازة العقارات والأراضي والسيارات الشخصية خلال الثمانينيات وما بعدها، لمعرفة حجم المكاسب المالية والمالية على صعيد الأفراد من سلة نظام البعث الذي انقلب عليه

الأكثرية، مع بدء الغزو الأمريكي الذي وفر فرصة جديدة لمزيد من الفرهود والنهب وتحقيق المكاسب المادية والمالية !...

ذلك ما دفع بالروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي أن يكتب في عموده الصحفي: (هؤلاء ليسوا من أهلي !)...

في مجتمعات أخرى لا يحدث ما يجري في العراق والشرق الأوسط... فلا أحد يخرب بلده ويسرق جاره وأخاه ويجني على مصير البلد وسمعة الشعب.

هناك مكان للحراك الوطني، ومكان للنخبة الثقافية والأكاديميين، ودور للنخبة السياسية والعسكرية، وموقف للنخب الدينية ! وفي بلداننا ليس غير الغوغاء والفوضى ومظاهر الهمجية المنفلتة في كرنفال غياب القانون والدولة.

بعد الحرب العالمية الثانية ظهر تيار اللامعقول في فرنسا، للتعبير عن رداءة الواقع الطارئ جراء عوامل خارج إطار التطور الاجتماعي والسياسي الطبيعي في البلاد. لكن هذه الأفكار والأُطر لا تنطبق على العراق مثلا !.

وعندما أنظر الآن حواليَّ وأستذكر كلَّ ما مرَّ، أعترف أنها حياة سيئة، ولكني لا ألوم نفسي أنني لم أنتهزها، ولم أحوِّل هزائمها إلى انتصارات في جعبتي.

أن كل تعامل مع السيئ هو سيء. وكل ما يخرج من السيئ فهو سيء. ربما يخالف هذا إرادة الحياة وإرادة البقاء. ولكن ما قيمة البقاء في منظومة سيئة أو زمن سيء؟ !...

أنا لا أضع لنفسي ولأمثالي علامة (صح) مدرسية، ولا أضع علامة (رسوب) أمام الذين استفادوا أو يستفيدون من كل ظرف لصالحهم الشخصي. ولا أريد أن يؤخذ هذا بمنظار السياسة والوطنية، ولكني أقول بالمنظور الاجتماعي والنفسي، الذي يأخذ بالاعتبار ظروف النشأة البيئية والتركيبة النفسية لشخصية الفرد. وأسجل هنا مقولة كارل يونغ : (إن الإنسان هو ضحية لتركيبته النفسية أكثر منه مخترعها).

ربما لو اختلفت ظروف نشأتي الاجتماعية وعناصر تركيبتي النفسية لاختلفت خريطة حركتي في الواقع، وكنت شخصًا ناجحًا في نظر أصدقائي وصديقاتي، ولما وجدت نفسي منغمسًا (الآن) في البحث والدوران حول مركز الألم.

ربما سعت ظروف الخوف والاستبداد وظروف الحرب والبروباغندا في ترويج طبعة شعبية للفرد تحت عنوان المفهوم الجمعي للأفراد، وصياغة فرد تمَّ تشذيب عناصر المعارضة والاختلاف منه، على غرار مبادئ مختبرات البيولوجيا الأمريكية الهادفة لاستنساخ بشر وفق مواصفات جينية معدلة حسب المنظور الإمبريالي الأمريكي للإنسان(*).

في هذه الحالة فقط يمثل شخصي نسخة فاشلة (defect / upsturz). هنا يرى يونغ أن (دولة الجماهير – يقصد دول أوربا الشرقية في ظل النظام الاشتراكي – لا تسعى لنشر الفهم المشترك والعلاقة بين الإنسان والإنسان إنما تتوق بالأحرى إلى التذرية (من الذرة) والعزلة النفسية للفرد. كلما زاد انفصال الأفراد عن بعضهم البعض، رسخت دولة الاستبداد والمافيا، والعكس صحيح) – ص٦٩(*).

وهذا أمر تنقصه الدقة، لأن دولة الجماهير (الاشتراكية / الدكتاتورية العسكرية عربيًا) سعت لإشاعة ثقافة أيديولوجية شعبية واحدة، هرمية البناء، تمثله بدور الرأس والأب في هذه الثقافة وهو ما ينطبق على دولة الدوغما الدينية الشمولية التي رسخت فكرة الطاعة العمياء والعبودية للرأس.

إن خوف السلطة من المجتمع هو ما يدفعها للتدخل الفاعل في تربيته وتثقيفه ليكون طوع إرادتها. ولكن يونغ حسب واقع النص السابق خلط بين المفهوم السياسي لثقافة الأيدولوجيا الواحدة (الفهم المشترك)، والمنظور النفسي لعزلة الفرد.

- **انظر : جورج أورويل في روايته (١٩٤٤)، والانسكلوبيديا الأمريكية.**
- **كارل يونغ - من أنا... ذات لم تكتشف بعد. ترجمة د. أسامة النقاش- منشورات دار الكلمة – مصر ٢٠٥٥**

إن عزلة الفرد هي التي تقض مواجع النظام وتثير شكوكه، مما يخدم اتجاه الأفراد للذوبان في المجموع – المكشوف – الواضح.

يبقى أن القول بالتكيف مع الواقع لتحقيق حياة ناجحة، واعتبار الفشل في الانسجام هو الموت (ضد الحياة) إنما يسقط مفهوم القيمة الاجتماعية والأخلاقية بغض النظر عن موازين الربح والخسارة المادية على صعد شخصية.

هذه المفاهيم قد تتفاوت من شخص لآخر ومن جماعة وفئة لغيرها، وبالنتيجة يختلف موقف الأفراد والجماعات فيما بينها، مما يشكِّل ظاهرة عامة، باعتبار الاختلاف هو القاعدة والاتفاق هو الاستثناء.

•

- الواقع الأمريكي للتاريخ

منذ اختفاء القطبية الاشتراكية من قيادة التاريخ المعاصر، أخذت تتضح ملامح واقع دولي جديد يتأسس على مستوى كوسموبوليتيكي في كل بلدان العالم تلعب فيه عناصر الاقتصاد المفتوح والثقافة الشعبية دورًا رئيسًا في صياغة البنى التحتية والفوقية للبلدان والمجتمعات، وتمارس فيه عوامل السياسة والحرب والدين أدوارًا مساعدة.

لقد وظفت الولايات المتحدة الأمريكية كل منتجات ثورة الاتصالات لخدمة بناء قرية كونية أو عالمية(•) قائمة على قطبية المركزية الأمريكية وتقارب الأجيال الناشئة الجديدة في موضات الطعام والثياب والسلوك والأفكار الأمريكية والنزعات الاستهلاكية وأولوية الجسد والغريزة والمال على ما عداها. هذا الواقع الأمريكي الحديث للتاريخ ينعكس على مفاهيم الحياة المعاصرة والمستقبلة حسب تعريف سبنسر في النجاح أو الفشل، الحياة أو الموت. وليس من المنطقي أن من لا يساير الواقع الأمريكي يختار الموت.

• مفهوم القرية الكونية عند ظهوره اتصل بتطور تكنولوجيا الاتصالات، وأصبح مفهومًا سياسيًا بعد ذلك.

إن الفرد هنا يشعر بذاته من خلال اتصاله بالجماعة والذوبان فيها وتقليدها في التقليعات السلوكية وأنماط المعيشة، ولكنه يفقد شعوره بذاته كفرد له استقلاليته وحرية قراره. فما أن تتغير الظروف التي لا يمكن أن تستمر على نفس الشاكلة لمدة طويلة - وفي مقدمتها عامل السن والظروف النفسية والمزاجية - حتى يحس بالفراغ الذي يدفعه لحال من العدمية. هنا يرى يونغ ان الذات تبدأ في اكتشاف معناها عندما يتقاطع الفرد مع المجتمع، وعندها يبرز عنصر الإبداع.

فالإبداع في جوهره تجديد ومغايرة، ينشأ من واقع الوحدة والتفكر الذاتي وليس من قبيل الانغماس والذوبان الاجتماعي.

إن لكل ظاهرة وكل وقت أنصاره ومناوئوه، ولابد من الاختلاف في الأذواق والمذاهب، بعيدًا عن أحكام النجاح والفشل، والحياة والموت.

إن الخوف من الوقوع في اللاجدوى هو الذي يجعل البعض يستغرق في تمجيد الأعمال والتفاخر وتمييز ذواتهم، وهذا نابع من ضعفات النفس والهروب من اجتراح أسئلة الوجود المغلقة.

ما جدوى مثل تلك الأعمال والأمجاد وماذا بقي منها ومن أصحابها عبر التاريخ؟...

الهروب من العبث في هذه الحال هو إيغال في العبث، والهروب من اللاجدوى وقوع في اللاجدوى.

وبحسب الجامعة سليمان : (باطل الأباطيل كل ما تعمله يد الإنسان، ما الفائدة من كل تعب الإنسان تحت الشمس؟ !)[•].

•

• سليمان الحكيم - سفر الجامعة - الإصحاح الأول - من كتاب التناخ العبراني.

obeikan.com

- الحياة وقت و الولادة موت

إن الحياة زمن والعمر وقت. والكائن الحي جرم صغير يتحرك على خط الزمن اللامحدود.

بل أن الإنسان -كما يراه أندريه كومتس بونفل(•)- هو نقطة تربط بين المحدود واللامحدود، بين الفيزيك والميتافيزيك، بين المادي والروحي.

أما يونغ فيقول: (أن الإنسان عاش طوال قرون عديدة يرتع في راحة الإيمان بأن إلهًا واحدًا قد خلقه على صورته ومثاله. وحتى اليوم هو لا يدرك أنه مجرد خلية في بنية ثمرة كائنات كونية. ومن ثم فهو داخل ضمنيًا في خضم صراعاتها. يشعر الفرد، أنه كفرد كائن لا معنى له، ويحسب أنه ضحية لقوى لا يمكن التحكم فيها.).

إن مفهومًا عبثيًا خلال كل هذا سوف يعتبر أن الحياة وقت، ووظيفة الإنسان قتل هذا الوقت.
قتل وقته يعني قتل نفسه.

وحسب تعبير مفكر آخر، أن الإنسان في اللحظة التي يولد فيها أو يخرج من الرحم إلى العالم، يبدأ بالموت. وما يسمى بالحياة إنما هي في الواقع صيرورة وسيرورة عملية للموت تنتهي بالعودة إلى التراب.

البوذية والهندوسية ترى أن خط الزمن الذي يدور فيه عمر الإنسان هو خط دائري مستمر حتى يتطهر الفرد من كل السيئات... أما الديانات الإبراهيمية فترى أن حياة الإنسان تسير على خط مستقيم وتقترح طُرقًا أخرى للتخلص من السيئات المتوارثة أو المرتكبة من قبل الفرد نفسه... أما الفكر العربي فيقدم صياغة أخرى غير بعيدة في جوهرها عما سبق، فيقول حاتم الطائي :

• **Andre Comte-Sponville, The Book Of Atheist Spirituality, Bantam Books, 2008, London**

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ..... ولابدَّ يومًا أن تردّ الودائعُ

ثم يتطور مفهوم الوديعة لدى محمد الشافعي إلى فكرة (دَين / قرض) فكل ما يكسبه فرد لابد أن يردّه، وهو يقترب من جوهر الفكر البوذي.

وفي مجال الاجتماع البشري، كل ما يفعله الإنسان بغيره، يُفعَل به أيضًا !... وهكذا يتحقق التوازن / العدل في النظام الطبيعي.

لكي يكون المرء سعيدًا في موته أو بعد موته، لابدّ أن تمحى كل ذنوبه، وديونه، ولا يكون رصيد حساب(حياتـــ)ـــه سلبيًا. وهكذا يكون كل ما يطلق عليه المجد والترف والعظمة والشهرة إنما يتحقق في نقطة على طريق الموت الطويل. حيث في كل لحظة، يقترب الموت أكثر ، ويصبح الفرد أكثر يقينية بالغاية التي هو ماض إليها، بلا رجعة أو حول.

•

- ولكن ما هو الواقع...

الواقع جُملة عناصر فيزيائية مادية، والفيزياء لا يمكن التعرف عليها بغير الحواس الخمس.

يميز كومتس بونفل بين القدرة على الفكر وبين العقل. ويقول إن القدرة على التفكير بلا عقل لا فاعلية لها، والعقل بلا قدرة على التفكير يتحول إلى عضو من أعضاء الجسم العادية.

إن الأشياء موجودة لأننا ندركها، ونحن ندركها لأننا نستطيع التفكير بها.

إن الواقع لا وجود حقيقي له خارج إدراكنا. والشخص الفاقد للإدراك لا يعرف الواقع.

الأعمى لا يستطيع أن يرى. الرؤية عملية فيزيائية، وفقدان القدرة على الرؤية إسقاط لركن من أركان الواقع. وفاقد المقدرة على السمع، لا يعرف بوجود

الصوت. الصوت عامل فيزيائي، وعدم السمع يلغي رُكنًا من أركان فيزياء الواقع.

وبحسب هذا، فإن التكيف مع الواقع، يعني العيش بحسب الحواس، العيش بحسب الغريزة.

فالواقع مرتبط بالمعرفة والإدراك، والمعرفة والإدراك ترتبط بالعقل والوعي. وهذه ليست واحدة عند الجميع، فيختلف الواقع باختلاف آلية إدراكه ومستوى الإدراك وتصنيف المعرفة.

وبحسب تعدد ذلك سوف يتعدد الواقع. واقع اجتماعي، واقع سياسي، واقع فكري، واقع نسائي، واقع رجالي، واقع طفولي، واقع طوباوي، واقع وجودي، واقع شعري، واقع علمي، واقع علماني، واقع روحي، واقع لغوي، واقع انطباعي، واقع شرقي، واقع غربي، واقع هندي، واقع أفريقي، واقع عربي، واقع فرنسي، واقع ألماني، واقع أمريكي، واقع برازيلي، واقع بوذي، واقع إسلامي، واقع مسيحي، واقع تاوي،...،إلخ.

وإذا كان الفرد هو المركز، فإن الفرد هو الذي يخلق واقعه الخاص (الفردي)، بمعنى تبعية الواقع للفرد وليس تبعية الفرد للواقع كما هو في الفكر التقليدي الاجتماعي.

•

- صراع مع الطبيعة

ثمة أفق آخر يمكن استقراؤه في مقولة سبنسر إذا تمَّ استبدال مفردة (الواقع) بمفردة لغوية أخرى مثل (البيئة / الطبيعة). ففي المنظور الانثروبولوجي أن استمرارية الجنس البشري هي دالة انتصار الإنسان على عوامل الطبيعة.

ولكن التاريخ سيرورة وصيرورة مستمرة بالمفهوم الجمعي والمفهوم الفردي.

ففي أي لحظة يفشل فيها الإنسان في السيطرة على عوامل الطبيعة وتكييفها لصالحه، يكون ذلك إيذاناً ببداية الموت والاضمحلال.

إن تكييف البيئة الطبيعية هو بمعنى ما صناعة الواقع البشري. الواقع البشري هو القرية والمدينة والاقتصاد والدولة والبوليس والجامعة، وهذه كلها منتجات بشرية تختلف عن البرية والغابة والبحار والمحيطات.

كيف يتكيف الإنسان مع واقع يصنعه أو سبق فصنعه بيده وإمكانياته الفكرية؟.

هنا تتدخل المرحلة التاريخية ومسألة التطور أو مفهوم العصر بكلمة واحدة.

فنحن لم نصنع واقعنا، ولكننا نعيش في واقع صنعه أسلافنا.

ومع التطور وتغير متطلبات الحياة لم يعد الواقع يناسب تطلعاتنا ويستجيب لاحتياجاتنا، لذلك نحاول البدء في تغيير الواقع (الثورة) أو البحث عن واقع آخر (الهجرة) يناسب عناصر التغير الجديدة فينا.

الواقع، أن كل فرد يغير الواقع بما يناسبه وبحسب حدود صلاحياته وإمكانياته. ففي المنزل أو الحجرة يقوم الفرد بين مدة وأخرى ببعض التغيرات والإضافات بحيث يشعر بطمأنينة أكبر أو راحة أفضل.

عندما تجلس في البيت أو المقهى أو العمل تحاول تحريك الكرسي ووضعه بزاوية معينة. في بعض المحلات العامة حيث يجري تثبيت أرجل الكراسي في الأرض تشعر بوجود مقاومة قهرية ولا تشعر بالراحة المرجوة في جلوسك.

نفس الشيء يحدث في السرير، فمن النادر أن شخصًا يدخل إلى الفراش مثل روبوت، ليشغل أو يملأ الحيز المخصص له للنوم. يغيِّر مكان الوسادة أو الشرشف وقد يصحو خلال الليل متذمرًا وينام على الأرض.

يشكِّل الاقتصاد ركنًا في الواقع المتصل بالمعيشة، وعدم القدرة على الانسجام مع الحياة الاقتصادية وتأمين متطلبات المعيشة من خلال الحصول على عمل مناسب يهدِّد استمرار الحياة ويعرقلها.

أعتقد أن اللغة تقود إلى دوامة فكرية في هذا المجال. فما يدعى في الإنجليزية (survive) وفي الألمانية (überleben) هو ما يترجم في اللغة العربية بمعنى الحياة أو النجاة أو الانتصار على الصعوبات.

فالبقاء على قيد الحياة بالتعبير الغربي يخلو من لكنة النجاح والانتصار وكأن المرء في ساحة معركة أو امتحان أو مسابقة، ولا يتضمن أية مسحة من تفاخر أو مجد، فالهوموليس (ساكنو الإنفاق والأرصفة) يواصلون حياتهم بالنتيجة مثلهم مثل أبناء القصور والفنادق الراقية وبيوت البلدية والإيجار.

والوقت الذي يقضيه الإنسان اليوم خارج المنزل أكثر من وقته داخل المنزل. حاجة المنزل الأساسية اقتصرت على النوم، والنوم بحد ذاته هو خروج من الواقع عبر تعطيل الحواس.

•

خلال كل ذلك يبقى الألم (ظاهرًا أو كامنًا داخل الذات) رهنًا بالوعي والإدراك، الألم هو الضريبة التي تدفعها مقابل الحياة، جراء جريانها في الوجود، أو جراء وجودها في المجتمع، أو جراء كل ما يمكن أن يصدر من الإنسان أو يحسب عليه، فلكل شيء ثمن.

المخفي والمستور وما بين السطور !

كيف صارت القرية الأمينة زانية.
كانت ملآنة حقًا ، والعدل يبيت فيها.
وأما الآن فالقاتلون.
صارت فضتك زغلا ، وخمرك مغشوشة بماء.
رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص.
كلّ واحد منهم يحبّ الرشوة ، ويتبع العطايا.
لا يقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة
لا تصل إليهم.
– أشعياء بن آموص – (*)

زمن انحطاط ، زمن تردي ، زمن سقوط ؛ سقوط شامل ، تدريجي ، عمودي ، أفقي...

ماذا يحدث في العراق ؟...

وهل يستمر العقل متشبثًا في خانة المنطق ، يستجدي تبريرًا لما يحدث تحت أي عنوان ؟.

هل يكفي استمرارنا في التنفس أن نقول : حمدًا لله ، ونحن يحيط بنا هواء فاسد ، يتربع على ترويجه لصوص وفُجَّار وخونة ؟.

هل انتهى الرجال ؟... أم انقطع خيط الصواب ؟... أم انتحر سلطان السؤال ؟.

المنطق الحقيقي هو الذي يحاكم الواقع وليس يتشفع له...

---

* سفر أشعياء بن أموص (١ : ٢١- ٢٣).

obeikan.com

والعقل الحقيقي لا يستسيغ الرداءة ولا يجعل منها عنواناً لنهضة حلمية، فما من شجرة تعطي ثمرًا من غير جنسها ونوعها، ولا ورود تنبت في مستنقع هواؤه مثل مائه راكد.

وما يقام على الخطأ هو خطأ، والثمرة من نوع الشجرة.

كيف رجع العراق أربعة قرون إلى الخلف، بينه وبين المنطق الطبيعي أكثر من قطيعة؟...

الثورة الشعبية التي وصلت متأخرة إلى شوارع العراق، حملت عنواناً خافيًا أسوة بثورات تونس ومصر وسواها... الكرامة... الكرامة.

•

- مجتمع بلا خدمات أساسية

منذ عشرين سنة والكهرباء الطبيعية غائبة عن بيوت العراقيين، والخدمات البلدية غائبة عن الشارع والمحلة، فالزبالة والعتمة وعناوين الشعليه والقرصنة؛ سمة هاته المرحلة، وأمام قصر رئيس الوزراء في المنطقة الخضراء (خضراء الدمن) كومة من الزبالة هي شعار حزب وفكر ونظام حكم...

منذ عشرين سنة يستمر التسيّب من نظام التعليم، ويستمر التزوير في الألقاب العلمية والشهادات الجامعية والعليا. ناهيك عن تردي مناهج التعليم أو التعليم النوعي، ففقدت الدرجة الأكاديمية قيمتها، وانخفضت ثقافة حملة (الدال) وسلوكهم بشكل مريع. أما ممارسات سلطات الحكومة المستغرقة في مختلف أنواع الفساد الإداري والسياسي وامتهان كرامة الإنسان وحقوقه فقد تجاوزت كل ما اختزنته ذاكرة الاضطهاد الرافدينية.

تحول العراق من دولة بلا جيش أو أمن داخلي إلى حالة تجاوزت أعداد المنتسبين لكل منهما المليون ونصف، يمارسون أنواع التعذيب والاضطهاد ضدّ

العراقيين على أساس الهوية (الطائفية والسياسية)... ووجود هكذا قوات مرتزقة على حساب الشعب وكرامة الوطن أسوأ من عدمها.

دولة القانون فقدت نقطتها مع الزمن وصارت دولة (الفانون) والفانوس ، وتحولت الانتخابات إلى (انتحابات) ولطميات.

•

- غـزو "متخلف"

العراق أول بلد يتعرض لغزو شامل في القرن الحادي والعشرين ومطلع الألفية الثالثة. فهو أعنف وأشمل وأوسع وأرقع وأخطر مدى، في دوافعه ونتائجه من الغزو الأمريكي الفاشل لأفغانستان.

ومنذ غشى البلاد أحدث ممارسات وانتهاكات ومخازي كانت الغاية منها تعفير الكرامة العراقية بالرمال (انتهاكات سجن أبو غريب وبوكر). لذلك تعمد الأمريكان فضح الانتهاكات وكشف بياناتها وأفلامها لوسائل الإعلام... فماذا كان ردّ الفعل العراقي ؟... هل كان هناك ردّ فعل البتة ؟... هل خرجت مظاهرات عارمة في الشوارع مثل تلك التي استنكرت رسوم الكاريكاتير الدنماركية ؟... هل طردت الحكومة السفير الأميركي أو سحبت سفيرها أو هددت بقطع علاقاتها التجارية وحظر إمدادات النفط أم... أم...؟!

هذا الكلام ممكن في ظل وجود منطق ووعي داخل التاريخ. لكن العراق اليوم وأمس وغدًا هو خارج التاريخ، خارج الوعي التاريخي وديناميكية التاريخ.

العراق تحت الاحتلال... شكل هذا الاحتلال سياسي وعسكري واقتصادي وثقافي وأخلاقي. كل شيء في هذا البلد تحت الاحتلال، تحت رحمة الاحتلال أو في ظلّ نعمته !.

أما ما غفل عنه الأمريكان فهو تحت رحمة احتلال آخر ، هو الاحتلال

والاختراق الإيراني ، وهذا أكثر تعسًا من سابقه ، احتلال عامودي عرقي شوفوني يتوسل أساليب دنيئة وغاياته أكثر دناءة.

(**كلّ ما هو طبيعي يبقى طارئًا... وكل ما هو طارئ هو طبيعي** !...)

هذه العبارة المقتبسة بتصرف من قصيدة لفرج الحطاب تتضمن قدرة تعبيرية عالية لما كان ويكون وما هو كائن.

عبارة تحتاج تحديد موعد لاستفتاء العراقيين بشأنها ، لمعرفة عدد الذين يعتبرون واقعهم طبيعيًا ، أو طارئًا ، أو (no change) !...

•

- إلغاء (الكائن)

إلغاء وزارة الثقافة والدفاع كان إجراءً شكليًا ، دالته البنيوية أكثر عُمقًا وبُعدًا من مجرد المعنى اللفظي.

خرج البعض مطالبًا بإعادة هاتين الوزارتين العريقتين في ضمير الوطنية العراقية ، وبحسب اللعبة الديمقراطية تمَّ إعادة هيكلة الوزارتين لاحقًا...

لكن العراق بقي من غير ثقافة ومن غير دفاع. وهكذا صارت في العراق وزارة ثقافة بلا ثقافة ، ووزارة دفاع بلا دفاع.

وما يصح هنا يصح مع هيكلة بقية الوزارات والمؤسسات ، انتهاء بالحكومة التي لا تولد إلا بعد ستين عملية قيصرية. فماذا عن الديمقراطية وحريات التعبير والتفجير والتطبير وما إلى ذلك ؟...

علم و دستأور و مجلس أُمة... كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّفُ

أسماء ليس لها سوى ألفاظها... أمَّا معانيها فليست تُعرَفُ

من شعر الرصافي العظيم !

•

- وهنا صورة أخرى للمفارقة !

الثورات الشعبية العارمة في تونس ومصر والأردن واليمن والبحرين وعمان استهدفت أنظمة قائمة وحكومات حاكمة ، ومطاليبها الوطنية تنبع من قراءة عميقة لأوضاع البلاد وأزماتها المتراكمة ، وعندما تطالب بالتغيير أو سقوط النظام فهي تستقرئ صورة النظام البديل الذي يستعيد الشعب به أجهزة الدولة لخدمته وليس الانقضاض عليه.

والحال مختلف في الصورة العراقية...
فالنظام ديمقراطي والحكومة منتخبة وسياساتها تحظى ببركة البرلمان والسيستاني ، والشعب هو الذي قام بانتخاب حكامه وللمرة الثانية على التوالي ، فما هو مبرر الثورة ؟... هذه المعطيات الديمقراطية (المشوهة والمزورة) هي التي جعلت (الذي رأى نفسه) على رأس الحكومة أن ينسب خروج الشارع إلى الشغب والأيادي (الخارجية العميلة) ، ربما يقصد أحزاب حكومته بالتأكيد !... وبحسب الأساليب والمراسيم الديمقراطية تمَّ استخدام أفضل أنواع الأسلحة وأحدثها في المحافظة على استقرار البلاد.

عند هذه النقطة وجد العراقيون باليقين القاطع أن حياتهم ليست مقطوعة تمامًا عن وسائل الحداثة و(البوست مودرن) ، فأجهزة مكافحة الشغب الإنجليزية والأميركية تتميز بمواصفات حديثة متطورة تشكِّل نقلة نوعية في فن تعذيب الجماهير العراقية بالرصاص المطاطي والحقيقي وخراطيم المياه والعصي المطاطية والكاتم صوت. وعما قريب يتم استخدام العصي الكهربائية أسوة بأساليب المجلس العسكري لقيادة مصر في أعقاب زيارة كاميرون رئيس وزراء بريطانيا لمصر (•).

•

• عقب إزاحة الرئيس الإخواني المصري الدكتور محمد مرسي [٢٠١٢-٢٠١٣م] وضعت القوات الأمنية يدها على باخرة محملة بأجهزة وأدوات تعذيب ومكافحة شغب بقيمة أربعة مليارات على ذمة الحكم الإخواني.

أين هو الموقف الثقافي الوطني من الراهن العراقي؟ أين هي القراءات الفكرية، السياسية التاريخية، التي تنير طريق الثورة العراقية وتساعد الوعي الجماهيري أو الفردي على الانتباه من وطأة التردي والاستذلال التي تنزلق فيها البلاد تحت نير القوى السياسية الطائفية المأجورة ضدّ هوية العراق التاريخية ؟... لماذا تراجع النص الإبداعي بعيدًا عن الوعي السياسي للراهن متسوّرا بالنزعة الفردية، و(المشي جنب الحايط) -بحسب التعبير المصري- ؟. في ظل هذا التراجع الثقافي وغياب الإبداع الفاعل انتشرت محافل الشعر الشعبي تحت مسمّيات مهرجانات طائفية أو بلدية -سيئة الصيت-، وهي في الغالب تمتح من ثقافة التردي السائد في الفكر والمعالجة والتعبير، موشحًا بفائض من رموز دينية مستهلكة تحتمل وزر جانب كبير مما يلتهم العراق وشعبه، هو أقرب إلى شعر رثاء النفس والمناحات على طريقة (الملايات) في حفلات التأبين. والبعض يجد في هاته النصوص فرصة للتنفيس عما يعتلج في النفوس من يأس وإحباط وثورة داخلية مكتومة، تصطدم بسلطة الفتوى وشورة الامام.

عراق اليوم لا ينتمي للعراق التاريخي، والمشهد السياسي له طارئ بالمرة على الذائقة العراقية التي لم تكن طائفية ذات يوم، ونزعة التشيّع المشاعة في بعض النصوص تعتبر ردة فكرية وانقطاعًا عن صيرورة الزمن. ويومًا بعد يوم، تتقدم المصالح الشخصية على المصلحة العامة والوطنية، وتتراجع ثقافة بعض المثقفين والكتاب منخرطين كأدوات رخيصة في خدمة تيار الحكم الطائفي البغيض. المفارقة الأخرى في جدلية التخلف والاحتلال (الاختلال) هي دسامة الامتيازات المادية ورخص المناصب والملايين وما يدخل في مجالها، مما أغرى غير قليل من أجيال الحرمان ونقص الجاه، للبحث عن تعويض مادي على حساب جثمان الوطن.

يخطئ من يعتقد أن الهوية العراقية تشكّلت على يد الاحتلال الإنجليزي للعراق قبل قرن من الزمان. ويخطئ من يعتبر أن الاحتلال الامريكي والإيراني هو

تصحيح لهوية الدولة الأولى. فالتصحيح المنطقي في أي معادلة لا بدّ أن يكون خطوة للأمام. ولكن ما حدث هو خطوة عارمة للخلف، يتحمل وزرها القائمون بها واللاهثون في إطارها على اختلاف مسمياتهم وعناوينهم وشعاراتهم.

•

(لا) للثقافة الطائفية...

بعد ٢٠٠٥ تزايد شعور الطائفة الحاكمة بشغور مواقع الثقافة العراقية في الداخل، ووجود تقاطع بين الثقافة الوطنية العراقية الممثلة للهوية الأصلية الأصيلة وبين رواديد الثقافة الطائفية، وظهرت أكثر من محاولة استقطاب للمثقفين بادعاءات ومغريات رخيصة لم تجد حينها القبول والاستجابة المفترضة.

حاولت حكومة الجعفري استخدام أكثر من وسيلة في هذا السبيل، منها ممارساتها مع اتحاد الأدباء العراقيين وتجميد أموال الاتحاد والمساومة من خلالها لاستقطاب الأدباء لتأييد الحكومة والتهويس لها. لقد استخدمت الأموال وسيلة رخيصة لابتزاز المثقفين والأدباء وسوقهم لحظيرة الحكومة، وكما تجلى ذلك في كلمة ممثل الجعفري في افتتاح المربد الشعري – الذي صار بصريا حسب الخريطة الطائفية، وهو أول من ابتلع السنارة مع الخيط–. وهي الكلمة التي أنذرت بإمكانية استمالة الأدباء عندما تصلهم (رواتب الحكومة)، مما استثار احتجاجات في صفوف المشاركين.

كانت للجعفري ريادة التدخل في الصحافة ووسائل الإعلام الملتزمة بالحقيقة وحرية الرأي والتعبير والنشر، في أكثر من سابقة كانت نتيجتها انشقاق بعض الصحف أو تغييرات في طواقم الجريدة أو تجميد وتهميش من لا يلتزم شروط الحكومة. ولم يخرج خلفه وتلميذه المالكي عن هذا الخط، مع مبالغة في أساليب الترهيب والترغيب وتكليف البعض لصنع استقطابات جديدة في صفوف الكتاب

ومطاردة الفضائيات والصحف والكتاب والشعراء الخارجين عن التطبيع الرسمي، وصولاً لأساليب الاغتيالات المباشرة للمثقفين المناهضين وبطرق لا تنقصها الفجاجة كما حصل مع الفنان المسرحي هادي المهدي والشاعر الشعبي رحيم الياسري. ويعتبر عهد المالكي [٢٠٠٦- ٢٠١٤] هو الأكبر في نسبة اغتيالات الإعلاميين والأدباء والمثقفين والأكاديميين الكبار. كما تعتبر سابقته القضائية مع صاحب ورئيس تحرير جريدة كتابات الإلكترونية، أكثر أشكال مكافحة الديمقراطية وتصفية الرأي الحرّ قسوة وفضائحية. أعقبت ذلك أنشطة تمثيلية تحت عنوان مهرجان الثقافة العراقية في الخارج، يحضرها نفر من أزلام الحكومة ومروجي سياستها وتوزع فيها دروع وجوائز يفرح لها البعض. والطريف في تلك المهرجانات الشكلية الخائبة أن المشاركين يوزعون الجوائز على بعضهم، بما فيهم موظفي الوزارة المشاركين في البعثة المجانية على حساب الإبداع والثقافة العراقية المغتصبة.

كما شهدت الحقبة السالفة ممارسات مختلفة بحق الكتاب والمؤلفين والمبدعين الأحرار، تفاوتت بين المقاطعة والطرد من العمل حتى التصفية الجسدية، وهي المرة الأولى التي يخسر فيها العراق هذا العدد الضخم من أدبائه ومثقفيه، وللأمانة التاريخية لا بدّ من القول أن تلك السياسات الطائفية والشوفونية الجائرة طالت أعداد كبيرة من الأكاديميين وأصحاب الاختصاصات العالية والنادرة خلال الحقبة القصيرة من الحكم الطائفي في ظل الاحتلال. كواكب الفداء هاذه جديرة أن تخلد وتقام لهم نصب وطنية في العاصمة والمحافظات التي ينتسبون اليها، وتصدر بهم كتب ومجلدات تحفل بها مكتبة كل شخصية عراقية صادقة وأصيلة من أكاديميين وعلماء وأدباء وكتاب، باعتبارهم أضواء منيرة في ضمير العراق الوطني المدني المتحضر، مما يذكر باضطهادات المفكرين والفلاسفة والعلماء في حقب سابقة رفضوا التفريط بإخلاصهم وضمائرهم لمرضاة الحاكم.

•

الأمريكان وسياسة الصدمة

كانت هذه واحدة من أسلحة الأمريكان الاستراتيجية في الحرب على العراق. وكان استخدامها المبكر في ليلة السابع عشر من يناير ١٩٩١ في الضربة الجوية المفاجئة. تستهدف سياسة الصدمة (attack shock) احداث خلخلة في صفوف العدو بشكل يفوق توقعاته واحترازاته الميدانية. وفي مارس ٢٠٠٣ عوّل الغزاة على سياسة الصدمة في أكثر من صعيد.

١. الاحتلال العسكري الذي جاء مفاجئًا بحجم القوات والمعدات.
٢. عدم حصول مقاومة ميدانية بعد اتفاق مع الحكومة الإيرانية والحكومة العراقية.
٣. إلغاء مؤسسة الدولة العراقية ولا سيما الجيش والإعلام والثقافة.
٤. ابعاد المعارضة العلمانية ورموزها البارزة لديها.
٥. تفضيل الأحزاب الطائفية الموالية لإيران على حساب الوطنية العراقية.

وعمدت السياسة الأمريكية إلى ترك البلاد والناس بلا حكومة أو خدمات أو تمثيل سياسي أو إعلامي مدة من الزمن، كانت كافية لنقل مركز الإرهاب من أفغانستان إلى وسط العراق وخلق حالة من الضياع النفسي والتشرد الاجتماعي يزيد من وطأتها حرمان العاملين من موظفين ومستخدمين في مؤسسات الدولة أو الشركات الخاصة من دخولهم الشهرية، مع تفشي حالة التسيب في القطاع الخاص والمجالات العامة.

هاته الحالة النفسية والاجتماعية والمعيشية دفعت الشخصية العراقية إلى العودة للتنظيمات الاجتماعية التقليدية كالعشيرة والطائفة والمحلة أو القرية، لتأمين الحصول على سقف اجتماعي وظهير أمني وأرضية معيشية ونفسية توفر الحد الممكن من الأمن الذي صادره سيناريو الاحتلال.

•

- خطوة للخلف والأمان الاجتماعي

لقد نظر المواطن إلى الغياب المفاجئ لخدمات الحكومة وكيانها باعتباره خيانة بحق المجتمع. هذا الشعور بالخيانة والخذلان يدفع غالبًا ، -مع اختلاف الأفراد في حدة ردّ الفعل حسب خصائصهم النفسية- إلى قبول خيارات أكثر حِدَّة وشذوذًا. لقد تخلى قطاع واسع من المجتمع العراقي من سُكَّان المدن قبل نصف قرن ، عن أُطر العشيرة والطائفة والعرق. فإذا به فجأة لا يجد الأمان الاجتماعي وضماناته ، سيما أن التطور المدني وآليات العقد الاجتماعي بقيت بطيئة الحركة وضعيفة الفاعلية.

ليس من المستساغ عودة المثقفين والخريجين والمهندسين والمدرسين والكُتَّاب إلى حظيرة العشيرة والطائفة ، وعودة نسائهم وأطفالهم إلى نمط من المعيشة والسلوك مما تمَّ تجاوزها. هاته العودة لا تكون مجردة أو حركة عادية للوراء ، وإنما تقترن بدرجة من الاحتقان ومزيد من صعوبة التكيف ، تنعكس سلبًا على آليات الفكر والمشاعر والسلوك ، وتدفع إلى التطرف والعدوانية أو العنف والتوتر والقنوط والتفكير في الانتحار. روى البعض أنهم رأوا أشخاصًا كانت لهم بهم معرفة سابقة في مواقف لم يستطيعوا توقعها منهم. ولا يستطيعون فهم كيف تغيَّر أولئك الأشخاص فكريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

نعم ، هذا هو السؤال : كيف تغيَّر أولئك الأشخاص ؟... من أشخاص نعرفهم ونحبهم ، إلى أشخاص لا نريد أن نراهم أو نعرفهم ؟...

هذه هي الميلودراما العراقية ، المخفي والمستور وما بين السطور في حركة تطور الشخصية العراقية نحو الخلف.

لم تقتصر تأثيرات الحالة على سكان الداخل ، وإنما تعداهم لمن في الخارج أيضًا... سيما الخارجين بعد واقعة الغزو ، فالكثرة منهم تقمصوا ثقافة العشيرة

والطائفة والبلدنة مجددًا، والأكثر تخندقوا وراء أسوار الطائفة المسيسة.

يعتقد هؤلاء أن الدولة تخون، والحزب يخون، والفكرة تخون... أما الدين والطائفة فلا تطرح إلى خارج، سيما إذا تمسكنا بها جيدًا... دكاترة، بعثيون، شيوعيون، ماركسيون، تقوقعوا في شرنقة الدين والطائفة، دون اعتبار لمستويات الأداء الوطني والمساوئ التاريخية والاجتماعية المتفاقمة، قاصرين اهتمامهم على ما يجنونه منهم. بل أن مجرد الانتماء للجوّ الاجتماعي وحلقات الدين الأسبوعية، يقنعهم بأنهم ليسوا وحيدين، مهما جرى أو حدث.

لقد أنجزت سياسات الأمريكان إعادة هيكلة ديموغرافية في العراق، وفرَّت أرضية عريضة لقيام حكم طائفي، ومشهد سياسي يقوم على محاصصات طائفية وعرقية. هذا الفكر/الحكم الطائفي لا يعترف بالعلمانية كهوية أو انتماء مدني، وإنما يؤكد المرجعية الطائفية بصلافة مشهودة عندما يجري تعريف زعيم حزب شيوعي أو حزب وطني علماني بأنه شيعي أو سُنّي - علمًا أن الدستور يحظر وجود أحزاب وتنظيمات دينية أو طائفية -، ومنافاة التقسيمات العرقية والطائفية والدينية لميثاق حقوق الإنسان. وبالمنظور المدني والحضاري يعتبر اعتماد هذا القياس أو المعيار اليوم، قرونًا من التخلف، لا تنفع معها منتجات الإنترنت والديمقراطية والفضائيات والموبايل في ظل تخلف العقل والعقلية. فإذا كان الإنجليز يتحملون تبعات تسويغ مصطلحات السنة والشيعة، فإن الأمريكان يتحملون مسؤولية إعادة هيكلة الدولة والمجتمع العراقي على أساس عرقي وطائفي بغيض، مقوضين به، إمكانية قيام مجتمع مدني علماني متحضر في العراق.

ولكن السؤال الأهم هو : أين هو دور الفرد والمواطن العراقي في حماية نفسه وبلده، وأين هي الحصانة الذاتية الوطنية أمام المحتل؟!.